ذكريات أندلسية

استمرت هذه الشدة فى التربية عدة سنوات ، وكانت تصيبنى وتصيب أخى أيضًا ، ولكنها كانت معه أقل ثم زالت بالتدريج . وأظن أن أبى كان لا يريد أن نتأثر بالثقافة الأوروبية إلا بما يمكن أن ينفعنا منها . أما العادات والتقاليد والسلوك والمنطق فكان يريد كل ذلك مصريا . وأظن أن شدته فى تربيتنا خفت حينما أُدرك أن ما أراد أن يغرسه فينا – أنا وأخى – قد أثمر . والطريف فى هذا كله أن أمى لم تتدخل أبدا فى تربيته لنا ، فكانت تؤمن بأن ما يفعله هو السلوك الصحيح .

أما الأشياء الأخرى التى جعلت بيتنا بيتا مصريا فى أسبانيا ، فهو أننا كنا نصلى ونصوم رمضان ونحتفل بالأعياد الدينية والقومية ، ثم أننا – أنا وأخى – كنا نتلقى دروسًا خصوصية فى اللغة العربية مرتين فى الأسبوع . وكان يعطينا هذه الدروس طلاب مصريون أو عرب ممن كانوا يحضرون رسائل لنيل درجة الدكتوراه . وأتذكر أننا كنا نجلس معًا أمام « الأستاذ » أو « الأستاذة » وبينما كان أحدنا يقرأ بصوت عال ثم يستمع إلى الدرس كان الآخر يحل التمرينات وكان يستغرق ذلك عموما ثلاث ساعات تقريبًا فى كل مرة . وإلى جانب ذلك كان أبى دائما يجد وقتا لكى يجلس مع

obeikandi.com

أبى وأمى مع الأستاذ محمد حسنين هيكل وحرمه
عند زيارتهما لأسبانيا فى الستينات

كل واحد منا على حدة ، لنقرأ معه نصوصًا عربية ، وأتذكر أن أغلبها كان من كتب طه حسين أو العقاد أو شعرا جاهليا أو آيات قرآنية .

ثم مضت السنون وغادرنا أسبانيا التي أحببناها جدًّا والتي كان لنا فيها كثير من الأصدقاء نسمع عن أخبار بعضهم حتى اليوم . أما بالنسبة لأبي فكانت الأيام التي أمضاها في أسبانيا أجمل أيام حياته على ما أظن .

وكانت نتيجة طريقته في تربيتنا أنني بمرور الزمن أصبحت لا أتصرف في الغالب إلا بالرجوع إلى رأيه . وعلمتني التجربة أنه لم يكن في باله أبدا أن يفرض رأيه ليثبت قوته ، فقد أدركت حقيقة أنه كشخصية أكبر من ذلك وأن قوته تنبع من ذاته لا من سلطته كأب ، لذلك كان الكثيرون يلجئون إليه للمشورة فكان يُشعر من أمامه دائما بثقة في نفسه وفي الدنيا ، وهذه الصفات تطورت فيه بمرور الزمن ، ولذلك ترك وراءه فراغًا رهيبًا عندما توفي . فوجوده كان بالنسبة لمن عاشره ومن عرفه بمثابة الأمان والاستقرار والحلم بغد أجمل لأنه كان بطبيعته متفائلا جدًا .

* * *

كانت حياتنا في البيت دائما منظمة وكان يرجع ذلك إلى أمي . فمواعيد الإفطار ووجبتا الغداء والعشاء كانتا دائما هي هي لا تتغير إلا عند انتقالنا من بلد إلى بلد . فكان أبي يستيقظ دائما مبكرا

فى الصباح وفى نفس الميعاد . ثم كان يجمع الأسرة ميعاد وجبة الغداء وكنا دائما نجتمع فيها . وكان للمائدة دائما احترامها فنبدأ الأكل معا . وكانت أمى تغرف الأكل فى الأطباق ودائما تبدأ بطبق أبى فكما قلت من قبل كان يرحمه الله أهم ما فى حياتها .

وكان بعد تناوله كل وجبة من الوجبات ينزل إلى الشارع ليمشى نصف ساعة وكانت هذه نصيحة أعطاها له طبيب صديق فى أسبانيا واستمر طوال عمره ينزل لكى يمشى نصف ساعة ثلاث مرات فى اليوم وكانت أهمية ذلك المشى أن عمله كان يتطلب منه الجلوس إلى مكتبه ساعات طويلة متصلة . وحتى بعد عودتنا نهائيا إلى مصر - وكان ذلك فى منتصف السبعينيات - وجد أنه من الصعب المشى فى الشوارع فى القاهرة بسبب عدم أمان الأرصفة فكان يتمشى داخل البيت .

وأظن أن انتظام استيقاظه فى نفس الميعاد وانتظام مواعيد الأكل بالذات هى من العناصر التى ساعدته فى عمله كثيرا حتى استطاع أن ينتج هذا الكم الهائل من الكتب فى مجال تخصصه - وهو التاريخ الإسلامى - ومئات المقالات للصحف والمجلات ، وكذلك ما كان يكتبه من قصص أدبية . ويرجع الفضل فى هذا الانتظام إلى أمى .

وكان ميعاد وقت الغداء هذا من أفضل الأوقات التى كنا نمضيها معا كعائلة ، إذ كنا نتبادل الأخبار والملاحظات والآراء

وكنا نشعر أننا كيان واحد . وفيما عدا ذلك كان أبى دائما مشغولا بعمله قارئا أو كاتبا .

وعندما كنا أطفالا أنا وأختى كنا طول وقت وجبة الغداء مثلا نتلقى توجيهاته إذ لا يفوته شىء . فنسمع طول الوقت ملاحظات مثل :

– امسك السكين بالطريقة الصحيحة .

– لا تتكلم وفمك ملىء بالأكل .

– أفرد ظهرك على ظهر الكرسى .

– لا تقم عن المائدة إلا عندما ينتهى الجميع من أكلهم .

كان يوجه سلوكنا بصفة مستمرة ليس فقط فى البيت بل فى الشارع وفى أى مكان حتى انتظمت هذه المبادئ السلوكية بالتدريج ، فلم تعد هناك حاجة لتلك التوجيهات التى لم تقتصر علينا فقط ، بل كان يوجهها أحيانًا إلى الغرباء إذا رآهم يتصرفون بطريقة خاطئة ، والطريف أنهم كانوا دائما يتقبلون توجيهاته ، كانت السمة التوجيهية فيه تظهر دائما من أول مدرجات الجامعة إلى من حوله فى مجال العمل وفى مقالاته ، كما ظهر هذا بوضوح فى المقالات التى كتبها لمجلة أكتوبر والتى بدأت تنشر بانتظام منذ عام ١٩٨٠ . وأتذكر أن كثيرًا من مقالاته فى مجلة أكتوبر على وجه التحديد جاءت برد الفعل الذى كان ينتظره ، والأمثلة كثيرة لا مجال هنا لذكرها . وكانت هذه السمة التوجيهية تظهر

أيضًا فى قصصه القصيرة وكتاباته الأدبية الأخرى إذ كانت كلها ذات طابع إرشادى خلقى . أما عن مؤلفاته فى تخصصه فكانت تمتاز بالدقة العلمية الشديدة ، وكان بذلك يقدم نموذجا لما كان يريد أن يكون العمل العلمى عليه . فسمة الأستاذ الجامعى ، والمعلم ، والموجه كانت ظاهرة فى جميع نواحى حياته . وكانت الفروق بين ما هو صحيح وما هو خطأ دائما واضحة أمامه ولا يعرف التسامح فيها .

كان بيتنا عموما يتسم بالهدوء والصمت . فكان أبى يعمل فى البيت بعد الظهر وكان عمله القراءة والكتابة . فكان يجلس إلى مكتبه ساعات طويلة لا يمل أبدًا . وكانت أمى أيضًا تقرأ . وأما أنا فحين كنت صغيرة لم أكن أفهم ما هى القراءة ولا ما الذى يقومان به . فكنت أفتح أى كتاب وأنظر فى صفحاته لعلّ به شيئا يظهر بعد التدقيق فيه ولكن لم يحدث طبعا شيء من هذا القبيل . فكنت ألعب وغالبا ما كنت أصنع مراكب من الورق وألعب بها إما فى الحوض وإما فى طشت الغسيل بالحمام . ولأننى لم أفهم قيمة الكتب والكتابة كنت أحيانًا آخذ صفحات من كتاب موجود فى مكتبة أبى أو جزءًا من مقال كان يكتبه وأصنع منه أسطول المراكب الذى سألعب به ، وكان أبى يغضب حقا ويلومنى على ذلك كثيرا ، ففهمت أن هذا الورق المطبوع مهم وذات قيمة . ثم بدأت أمى تعلمنى الحروف وكان أبى يفعل ذلك أيضًا أحيانًا ، فتعلمت فك رموز الكتابة قبل دخولى المدرسة بمدة .

وعند خروجنا للشارع بدأت أقرأ الإعلانات وأسماء المحلات وكانوا يكافئوننى على ذلك ، وبالتدريج انفتحت أمامى عوالم جديدة لم أكن أتصور أنها موجودة وحدث ذلك عن طريق القراءة ، ويرجع الفضل فى هذا الكشف إلى كل من أبى وأمى ثم أصبحت القراءة - وبالذات بعد دخول المدرسة - عادة أقوم بها كل يوم حتى أصبح من الصعب التخلص منها . وتابعنى أخى على نفس العاده وأصبح أكثر شغفا منى بالقراءة ، ويرجع فضل ذلك إلى الأبوين ووجود مكتبة بالمنزل واحترام الكتاب ، فالكتب فى بيتنا كانت تعامل بعناية وتوضع فى مكان آمن وتنظف ولا يكتب فيها إلا بالقلم الرصاص لو لزم الأمر ذلك .

* * *

والقراءة حقيقة شيء جميل ، ولكن لو دخلت بيتا ووجدته كل يوم من أيام الأسبوع صامتا لأن صاحبه يقرأ ويكتب فلابد أن تشعر الزوجة بالمعاناة من هذا الوضع ، إذ يكون الزوج دائما معها جسديًا ولكنه منهمك فى عمله روحيا . ومثل هذا الرجل يحتاج إلى نوع معيّن من الزيجات فلا أتصور أن أى امرأة تستطيع أن تتقبل ذلك . أما فى بيتنا فقد كان أبى يمضى طول عمر زواجه على هذا المنوال جالسًا كل يوم ساعات طويلة مشغولا بعمله ، غير أن أمى تكيفت فى هذا الجو وتعلمت كيف تملأ وقت فراغها دون أن تسبب له أى إزعاج .

وبسبب عمله هذا كانت حياة أبى الاجتماعية محدودة جدًّا فلم يجد وقتاً لذلك . فعلى سبيل المثال لم أره أبدًا يخرج لمقابلة صديق أو يستقبل صديقا لتمضية بعض الوقت إلا لو كان بينهما عمل ما . ولم أره يطيل المكالمة بالتليفون أو يذهب إلى أحد النوادى أو ينضم إلى شلة أصدقاء يسهر معهم . فحياته كانت فعلا كلها عملا ثم عملا ثم عملا . وكان هذا العمل المستمر بالنسبة له هو لذته الحقيقية فى الحياة ومتعته . وكان عادة يتوقف عن العمل فى الثامنة مساء ولايعمل ليلا أبدًا .

وكان طول عمره يكتب بقلم حبر ثم تحول إلى الفولوماستير عندما اخترع ولم يستعمل – على ما أظن – الأقلام الجافة وذلك يرجع إلى ضعف بصره بحكم عكوفه المستمر على القراءة والكتابة . وعندما كان يؤلف كتابا كان عادة يكتبه فى كشاكيل ويرقمها ، أما المقالات فكان يكتبها على ورق فولسكاب وكان يعلم تماما المساحة التى سيغطيها ما يكتبه فى الجريدة أو المجلة التى يكتب لها .

* * *

وبسبب انشغاله الذهنى المستمر كان نومه قلقًا فيصعب عليه جدًّا أن ينام ليلا .

ومن أسعد لحظات حياته هى دخول ناشر إليه وفى يده نسخة من الطبعة الأولى لآخر ما ألفه . كانت فرحته حينئذ لا توصف .

وكان كل كتاب يقدمه فيه الجديد فى المضمون أو فى المنهج أو طريقة العرض . ثم كان له أسلوب خاص جذاب يصعب على قارئه أن يترك كتابا له أو مقالا قبل أن يتم قراءته للنهاية ذلك لأن الله سبحانه وتعالى منحه موهبة الكتابة التى كانت تنبع من قلمه سهلة شائقة من قلبه . مع غزارة مؤلفاته التى تجاوز عددها سبعين كتابا .

ورغم اشتغاله الدائم بقراءاته وكتاباته فلم ينس أبى أمى أبدًا ، إذ استمر طول حياته يخصص لها يوما يخرجان فيه وحدهما ويبعدان عن العمل . وكان هذا اليوم هو ظهيرة أيام السبت فى أسبانيا وأيام الجمعة بالكويت ، وفى هذه الأيام لا يفتح أبى موضوع عمله فكان هذا اتفاقا بينهما . أما عندما عادا إلى القاهرة فى السبعينيات فلم يجدا مكانا يذهبان إليه يوم خروجهما فلم تكن هناك دار سينما محترمة ولا مسرح ، فأصبحا يخرجان لتناول الغداء بالخارج حتى تدخلت ظروف أبى الصحية ، ولم يستطع أن يواصل هذه العادة .

أما بالنسبة للأسرة بأكملها فكنا – أثناء وجودنا فى أسبانيا – نقوم برحلات فى الصيف نتجول خلالها فى البلاد الأوربية . وكنا نسافر بالسيارة ويقودها سائق . وكان أبى يعشق السفر فلم يترك – على سبيل المثال – شيرا من أسبانيا لم نزره وبالذات منطقة الأندلس فى جنوب البلاد . فقد زرنا مرارًا قرطبة وغرناطة وأشبيلية ومالقة وغيرها من المدن الأندلسية ، وكان هو يعتبر هذه المنطقة

بالذات بمثابة الجنة فكان يعشقها عشقا . وذهبنا كذلك إلى شمال أسبانيا وغربها والبرتغال والمغرب وتونس ثم فرنسا وإيطاليا وسويسرا . وكانت هذه الرحلات تستغرق شهر أغسطس بأكمله ، ولم نترك مدينة مهمة لم نتوقف فيها ولا يفوتنا أثر تاريخى لا نتوقف عنده . وكان لدى أبى الكثير يحكيه عما نراه . وكانت هذه الرحلات وبالذات لأنها كانت تتم بالسيارة تمثل بالنسبة لنا جميعًا متعة لا توصف . وأحيانًا كانت الرحلة قصيرة فكانت تقتصر على قرطبة وغرناطة ثم قضاء أسبوعين فى قرية ساحلية ، وكانت غالبا مربلاّ قرب مالقة أو المنكب قرب المرية . وكانت كلها عطلات جميلة جدًّا ، وكنا نقوم بها لأن أبى كان دائما منفتحا وباحثا عَمَّا هو جديد ليس فى الكتب فحسب ، بل فى دنيا الواقع أيضا . وبطبيعة الحال وبطبيعة عمله ولأنه كان محبوبا لشخصه ومكانته ، فقد كان كثير السفر وحده إلى مؤتمرات ، وكان دائما يطلب من أمى أن ترافقه إلا أنها كانت دائما تفضل البقاء فى البيت ، لأنها بطبيعتها تتفادى بقدر الإمكان السفر بالطائرة . ويهيأ إلىّ أن أمى كانت دائما فى انتظار أبى سواء عائدا من سفر أو عائدًا من العمل أو عائدًا من مهمة . وكان دائما يبتهج عندما يراها . وعندما سألتها مؤخرا لو كانت فعلا تنتظره دائما أجابت بقولها : « نعم ، هذا صحيح والفارق الآن أنه هو الذى ينتظرنى » .

وبعد عودة أبى وأمى نهائيا إلى مصر حدث أن اضطرتنى الظروف إلى أن أعود وأعيش معهما فى نفس البيت . وكان ذلك

بضع سنوات قبل وفاته . وجدت حينئذ أن العلاقة بينهما قد تطورت لدرجة أنهما كانا متفاهمين أحيانا بدون كلام . فكان هو - كعادته طول عمره - يجلس إلى مكتبه يقرأ أو يكتب وكانت هي تجلس إلى مائدة السفرة قريبة منه تقرأ أيضا فأفاجأ بأنها تقول له « ايوه ، حالا ! » وكأنها كانت تشعر بطلبه قبل أن يقوله فتأتي به . وكان ذلك يحدث كثيرا جدا وأظن أن هذا يحدث في أى زيجة طويلة الأمد بين اثنين وفق كل منهما فى اختيار شريكه فى الحياة .

* * *

إن جميع البيوت تمر عليها أحداث سارة وأحداث محزنة . ومن الأحداث المحزنة التى مرت على بيتنا هو حادث أخى صفوان الذى توفى إثر حادث أليم ومفاجئ وهو فى منتصف العشرينات من عمره . كان طبيبا وحديث التخرج في كلية طب القاهرة ، وأتذكر أن أول من علم بموت أخى كان أبى فكان أول من عاد إلى البيت فى ظهر ذلك اليوم وكانوا قد اتصلوا به فى دار الهلال وطلبوا أن يجيء للبيت لأمر مهم . فبطبيعة الحال ترك كل شيء وعاد ولم ينتظر أمى التى كان من عادتها أن تمر عليه ظهرا بالسيارة حتى يعودا معا إلى البيت كما كانت عادته . فلم يعلم ما الذى قد حدث ورجع إلى البيت فورًا فرأى ابنه جسدًا هامدًا . وأتذكر أننى كنت عند عمتى فى ذلك اليوم ، إذ ذهبت لزيارتها بعد

أبى وأمى مع السفير المصرى أحمد أنور وحرمه فى أسبانيا فى الستينيات .

انتهاء عملي وكان ذلك في ٧ يوليو ١٩٨٠ . واتصل بي أبي هناك ورفعت سماعة التليفون ولم أتعرف على صوته في بداية الأمر فقال لي « مني — صفوان مات » . إنني لم أستوعب ما قاله فأعاد نفس الجملة . فعدت فورًا إلى البيت ووجدت ما هو من الصعب جدًا وصفه فكان حزن أبي وأمي كبيرا حتى إنه كان يبدو مسيطرا على المكان كله . وكانت هذه المرة هي المرة الأولى التي رأيت فيها أبي يبكي دموعا حزينة جدا ومرّة للغاية . وقد لا يستطيع فهم ما عشناه كأسرة في تلك الأيام إلا من مرّ بتجربة مماثلة .

واتخذت كل الإجراءات الرسمية اللازمة ومرّت الأيام الأربعة التالية للوفاة في حالة من الوجوم من الصعب وصفها و — بطبيعة الحال — كان حولنا ناس كثيرون يشاركوننا حزننا ولكن بعد بضعة أيام راح كل واحد لسبيله وبقينا وحدنا بحزننا كما جرت العادة في هذه المناسبات ، فكثير من الناس لا يدركون مدى حاجة من يكون في مثل حالتنا إلى المواساة على مدى أيام كثيرة بل ربما أسابيع بعد أيام العزاء المعتادة حتى يستعيدوا قوتهم ويعودوا إلى مسيرة الحياة اليومية . ولكننا كنا وحيدين والحزن يحيطنا مثل الضباب الذي يحجب الرؤية أو الحائط العالي الذي من الصعب تسلقه .